القول المكشوف

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

لعل الأدب الانجليزي أشد الآداب تحفظاً في المقال والالتزاماً للوقار وعزوفاً عن المجون ، فبينه وبين الأدبين الفرنسي والروسي ، مثلاً ، بون كبير في هذا المجال . وبعكس ذلك كان الأدب العربي الذي وسع من صريح العبارة عن ماجن القول وسفسافه ما لا يسيغه العصر الحالي ؛ بل لم يكن يسيغه فضلاء العصر الذي قيل فيه ، وذلك راجع للظروف المحيطة بالأدبين

فسماء الوقار والتسامي التي تعلو الأدب الإنجليزي راجعة إلى ثلاثة عوامل رئيسية متشابكة هي : طبيعة الانجليزي الهادئة ، والتربية الانجليزية التي تجعل غرضها الأول كبح نزعات الناشئ الجامحة وإلزامه ضغط النفس ، وثالث العوامل هو الرأي العام القوي

والرأي العام نتيجة للعاملين الأولين ، ونتيجة أيضاً للنظام السياسي الديمقراطي الذي يجعل الأمر للشعب في كل مناحي الحياة ، وهذا الرأي العام محافظ حريص على تقاليد الفضيلة يشهر الحرب على من يهم بخدشها ، وهو من القوة بحيث لا يجسر كاتب أو شاعر أو ناشر على تحديه وإلا كان عليه الغرم المادي والأدبي ، وقد ثار بالمستهترتين المتجاسرين على الدين والتقاليد أمثال بيرون وشلي فاضطرهم إلى مغادرة البلاد ولم يشفع لهم عنده نبوغهم ولا ما نالوه في غير انجلترا من الصيت البعيد .

أما الأدب العربي فخالطته عوامل اجتماعية وسياسية جعلت اجتثاث جرىء القول وبذيئه منه متعذراً : فهو قد ورث جفوة بداوته الأولى ، وسرى إليه الفساد الذي تبع الفتوح واختلاط الأعاجم والموالي ، وشجعت الحكومة الفردية المطلقة سريان هُجر القول بدل أن تدرأه ، فكان من الخلفاء والأمراء من حرضوا على المهاجاة بين الشعراء ، وأغضوا عن مجونهم ما داموا مشغولين به عن مناوأة سلطانهم ، وأجازوا من وقعوا في خصومهم بقبيح الهجاء

فالحكومة الفردية المستبدة قد حالت دون قيام رأي عام يقف للخارجين على تقاليده بالمرصاد ، أو هي لم تَدَعْ لذلك الرأي العام السلطة أو الهيبة الكافية لأن ينضح عن تقاليده ، بل كثيراً ما حَمَتْ الشعراء الماجنين من غضبه . وهكذا الحكومة القائمة على أساس فاسد لا يسعها — لشعورها بضعف مركزها — إلا مناصرة عوامل الفساد التي ترى مصلحة لها في بقائها ، أو خَلْقُ تلك العوامل

ولقد كان في الدولة الاسلامية عامل جليل الأهمية لو بقي تأثيره فاشيا لكان الأدب العربي أرقى الآداب على الاطلاق لفظا وأعفها قصداً ، وأعظمها تساميا : ألا وهو الدين الاسلامي الذي يحض على مكارم الأخلاق والذي كانت الدولة تقوم على أساس منه ، ويتضح أثره في عصر الخلفاء الراشدين ، وما كان من تأديب الحطيئة وردعه عن أعراض الناس

ولكن هذا العامل السامي الجليل تُنُوسِيَ في غمار السياسة ، وجرفه تيار التكالب على الملك والسلطة ، فلم يَعُدْ الخليفة أو الأمير يغضب إلا أن يناله الشاعر بِذائه ، فبشار بن برد الذي ضج عليةُ القوم ودهماؤهم عهداً طويلاً من فجوره وإقذاعه ظل مُعافَىً ولم يمس بسوء حتى تمادت به جسارته إلى عرض الخليفة ذاته . أما ما دام الشاعر متقيا غضب الحاكم أو مبتغيا رضاه فلا ضير عليه أن يرمي باللؤم أنصار الرسول أو يفضل إبليس على آدم ، أو يتهكم بيوم الحشر ، أو يتفاخر بشرب الخمر ، أو يتلهى بسب الرجال وقذف المحصنات ، أو يتباهى بالتسلل إلى الخدور في غلس الظلام

هكذا ضم الأدب العربي بجانب سامي الأغراض وشريف الأقوال وكريم الحكم والأمثال سقطاً من القول قوامه الأباحية والاستهتار ، وقام من الأدباء من سدموا الناس في عقيدتهم وتقاليدهم ونالوا من أعراضهم وسمعتهم ، وأودعوا الأدب من خسيس الأقوال ووضيع الأغراض ما ينافي مقاصد الأدب وسمو الفن بالنفس الانسانية . ولما لم يكن للناس عاصم من شرهم من رأي عام أو حكومة ساهرة عَمَدَ مَن استطاع منهم بِحَوْلٍ أو مكيدة إلى الذب عن نفسه بنفسه ، وهكذا لقي المتنبي وابن الرومي حتفيهما على أيدي مهجويهما

وهناك عامل اجتماعي لابد أنه كان من عوامل ذيوع هُجر

القول فى الأدب العربى ، بل فى المجتمع العربى ذاته : ألا وهو انسحاب المرأة من المجتمع شيئا فشيئا ، ففقد الأدب باحتجازها وراء الحجاب عاملَ تجمّلٍ وتوقُّرٍ وتعفُّفٍ فى اللفظ والغرض ، وصار الاخاش من الذيوع بحيث لم يتردد كاتبان فحلان يمثلان مجتمعيهما تمثيلاً كبيراً : وهما البديع والحريرى ، فى حشد مقاماتهما بمقذع السباب ؛ بل خصّصا لذلك مقامات بذاتها

وأظهر ما يكون المجون والفحش فى الشعر فى أبواب الهجاء والخمريات والنسيب الخليع والتشبيب بالغلمان . وقد أوغل بعض الشعراء فى هذه الأبواب إيغالاً لا يكاد يصدقه العقل . ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التى يجرى عليها تاريخ الأدب العربى لا تزال تعد من فحول العربية شعراء ولم يكد يؤثر عنهم مقال فى سوى هذه الأغراض الحيوانية . ومن البديهى أنه مهما تفنن الناظم وابتدع فى وصف الخمر وتصوير الشهوات فلن يرفعه ذلك الى مصاف الشعراء العظام ، إذ الشعر الرفيع لا يقاس بحسن الديباجة وبراعة المعنى فحسب بل بشرف الغرض أيضاً

فدواوين ابن أبى ربيعة وبشار وابن هانئ إن هى إلا استهتار واستسلام للشهوات وتمدح بالمخازى محكمة الديباجة بارعة النظم متنوعة الأوزان والقوافى ، تتخللها حكمة شاردة أو مثل سائر ليس للناظم فيه إلا فضل التأنق فى إعادة صوغه ، فاذا كان هؤلاء وأشباههم من فحول الأدب العربى فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقى !

ومما يفترق الأدبان العربى والانجليزى فى استجازته من أبواب القول — وإن كان يمتجى من الفحش — الفخر ، الذى لا يسيغه الأدب الانجليزى بحال ، على حين قد زخر الأدب العربى بما قيل فيه وعدّ باباً من أبواب الشعر التى تظهر فيها براعة الشاعر وتكمل بها منزلته . فالذوق الانجليزى لا يسيغ أن يُزكّى إنسان بما يتخيله فى نفسه من مكارم وعظائم ، بل من أول ما تطمح إليه التربية الانجليزية — كما سبق الالماع — أن تكبح فى الناشئ نزعة الزهو والعجب ، وليس أمقت فى المجتمع الانجليزى ممن يدل بنفسه . ولم يكن الشعر العربى فى أول أمره يعرف الفخر بالنفس ، وإنما كان فيه فخر بالقبيلة والعصبية ولا بأس بهذا ، ثم استباح بعض الشعراء فيما يستباحوا لأنفسهم التمدح بالنفس صدقاً وادعاء ، وغلوا فى مدح أنفسهم غلوهم فى مدح أصحاب النوال ، بل أغربوا فى المفارقة فجمعوا بين المدحين فى القصيدة الواحدة ، ونسبوا لأنفسهم الحكمة والشجاعة والمجد وشرف المحتد ، وأجلسوا أنفسهم بجانب الشموس والبدور ، وأوسعوا الدهر والحظ والناس ذماً بقدر ما أوسعوا أنفسهم مدحاً ، وتلك جميعا لعمر الحق بضائع النوكى !

فحرية القول — أو قل إباحته — فاشية فى الأدب العربى القديم ، بينما التحفظ ميزة الأدب الانجليزى ، وربما تغالى الرأى العام الانجليزى فى تحفظه وتشبثه بما يليق وحجره على ما لا يليق الخوض فيه من حديث ، فناهض مفكرين كان الخير الانسانى أو النفع العلمى كل مقصدهم ، كما كان موقفه من أوائل الداعين الى ضبط النسل مثلاً ، إلا أنه لا يلبث أن يخفف من غلوائه حين يتبين له شرف المقصد وفائدة الدعوة

ولئن حدت الحرية الفكرية الواسعة التى تمتع بها الفلاسفة والعلماء فى الدول الاسلامية فما كذلك الحرية التى استباحها المجان من الأدباء ، فالأولى حرية تساعد تقدم الفكر وترقى العلم ، والثانية تؤدى الى انحطاط الخلق وتضرب فى دعائم المجتمع ؛ الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية إباحية خلقية ضارة . والأدب يرسم للأمة مثلا عليا تتوخاها ، فاذا تمادى فى تصوير دنىء النوازع فانه يهبط بالنفوس الى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا

وللأدب المكشوف فى العصر الحديث دعاته الذين يحضون على اطراح النفاق الذى تفرضه التقاليد وتصوير الطباع على حقائقها ، على أن هناك فرقا بين المذهب الحديث وبين ما كان فاشيا فى الأدب العربى القديم : فأنصار هذا المذهب ذوو مبادئ مقتنعون برجاحته يرون أن الأدب يؤدى مهمته ويرقى الأخلاق الانسانية بوصف دخائلها ومظاهرها دون تمويه ، أما الآخرون فلم يكن لهم مبدأ ولا غاية سوى إرضاء الشهوات والنزوات وعلى الخلق الكريم العفاء

وهيهات أن يخلو المجتمع الانجليزى أو غيره من آثار تلك المفاسد التى أفصح الأدباء المتقدمون فى التعبير عنها ، ولكن ما لا يقبله ذلك المجتمع هو المجاهرة بذلك والمفاخرة والتجاسر على تقاليد المجتمع التى ارتضاها لنفسه وقامت عليها أسسه ، وإيغال ذلك فى عالم الأدب الذى تحويه بطون الكتب وتربيه الأجيال ويُقصد منه الى السمو بالانسانية

فخرى أبو السعود